مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(عبرانيين ٦: ١٣–٢٠)

يا إخوةُ إنَّ اللهَ لمَّا وعدَ إبرهيمَ إذ لم يُمكِن أن يُقسِمَ بما هو أعظَمُ منه أقسمَ بنفسِه* قائلاً لأُبارِكنَّكَ بركةً وأُكثِّرنَّكَ تكثيراً* وذاك إذ تأنَّى نالَ الموعِدَ* وإنَّما الناسُ يُقسِمونَ بما هو أعظَمُ منهم وتنقضي كلُّ مشاجَرَةٍ بينهم بالقَسمِ للتثبيت* فلذلك لمَّا شاءَ اللهُ أن يزيدَ ورَثةَ الموعِدِ بياناً لعَدَمِ تحوُّلِ عزمِه توسَّطَ بالقَسَم* حتى نحصلَ بأمرين لا يتحوَّلان ولا يمكنُ أن يُخلِفَ اللهُ فيهما على تعزيةٍ قويَّةٍ نحن الذينَ التجأنا إلى التمسُّكِ بالرجاءِ الموضوعِ أمامنا* الذي هو لنا كمِرساةٍ للنفسِ أمينةٍ راسِخةٍ تدخلُ إلى داخلِ الحجاب* حيثُ دخلَ يسوعُ كسابقٍ لنا وقد صار على رتبةِ ملكيصادق رئيسَ كهنةٍ إلى الأبد.

أحد القديس يوحنا السلّمي

تتّجه أبصار الكنيسة الأرثوذكسية في الأحد الرابع من الصوم إلى ثمار الجهاد الروحي وسيرة الفضيلة التي تجعل من قلب الإنسان مسكناً للخيرات الروحيّة ومحلاً لمواهب الروح القدس. وهي في تعييدها اليوم لتذكار القديس يوحنا السلّمي، إنّما تبرز أمامنا منهاج التوبة الذي يرقى بالإنسان من الأرض إلى السماء، واضعةً أمامنا سيرة القديس وتعليمه كمثال حيّ لعيش وصايا الإنجيل والنمو «في الحِكمةِ والقامةِ والنِّعمةِ» (لوقا ٢: ٥٢).

عاش يوحنا السينائي في القرن السادس، وكان مؤلّف كتاب «سلّم السماء» وراهباً لمع بالعلم والعمل. كرّس نفسه للحياة الرهبانيّة منذ سنّ مبكّرة، في جبل سيناء، حيث انصرف للصلاة رافعاً ذهنه إلى السماويّات وزاهداً بكلّ ما لا يقرّب الإنسان إلى الله. أقام في الطاعة المغبوطة والسهر والصوم حوالي التسع عشرة سنة، فغدا ملاكاً أرضيًّا بل إنساناً سماويًّا. وبعد رقاد أبيه ومرشده بالرب، انتقل إلى مغارة في عمق الصحراء ليتذوّق فيها عذوبة السكينة ومرارة التجارب والحروب الروحيَّة التي تنقّي الإنسان «كالذهب في البودقة». آثر الغربة مع المسيح على صخب العالم وهمومه، فغدت نفسه مينـاءً هادئـاً، مرشداً جماهير المتوحّدين إلى الراحة واللاهوى، وبات إرشاده ذروةً في العلم والتمييز الروحيين. وسرعان ما التحق به عدد من التلاميذ، وتنامت أخويّته حتى طلب منه الإخوة أن يرأس دير سيناء العريق. فقبل نير المسيح، وأرشد الرهبان بمصباح تعليمه المنير، إلى أن أكمل «الجهادَ الحسنَ» (٢ تيمو ٤: ٧)، وأنهى حياته الأرضيّة بسلامٍ مَن وَلَجَ الغمامَ الإلهي وتسلّم، من الله، أسرار معرفته الروحيّة.

وقد ترك لنا القديس «سلّم السماء»، درّة من درر الأدب الرهباني وكتاباً عن الحياة بالمسيح والتوبة والارتقاء عبر الفضائل إلى كمال المحبّة. يتألّف الكتاب من ثلاثين مقالة هي بمثابة ثلاثين درجة في سلّمٍ، تختصّ كلّ

العدد ١٤/٢٠٠٨
الأحد ٦ نيسان
الأحد الرابع من الصوم
أحد البار يوحنا السلّمي
تذكار أبينا الجليل
في القديسين أفتيشيوس
رئيس أساقفة القسطنطينية
اللحن الرابع
إنجيل السَحَر الأول

الإنجيل

(مرقس ٩: ١٧–٣١)

في ذلك الزمان دنا إلى يسوعَ إنسانٌ وسجد له قائلاً يا معلّمُ قد أتيتُك بابني به روحٌ أبكم* وحيثُما أخذَهُ يصرعُه فيُزبِدُ ويصرِفُ بأسنانِه ويَيبس. وقد سألتُ تلاميذَك أن يُخرجوهُ فلم يقدروا* فأجابه قائلاً أيُّها الجيلُ الغيرُ المؤمن إلى متى أكون عندكم حتَّى متى أحتمِلُكم. هلمَّ به إليَّ* فأتَوهُ به. فلمَّا رآهُ للوقت صرَعَهُ الروحُ فسقطَ على الأرضِ يتمرَّغُ ويُزبِدُ* فسأل أباهُ منذ كم من الزمان أصابه هذا* فقال منذ صباهُ، وكثيراً ما ألقاهُ في النار وفي المياه ليُهلِكَهُ. لكن إن استطعتَ شيئاً فتحنَّنْ علينا وأغِثْنا* فقال له يسوعُ إن استطعتَ أن تؤمِنَ فكلُّ شيءٍ مُستطاعٌ للمؤمن* فصاحَ أبو الصبيّ مِن ساعتَه بدموعٍ وقال إنّي أؤمِنُ يا سيّد. فأغِثْ عدم إيماني* فلمَّا رأى يسوعُ أنَّ الجمعَ يتبادرون إليهِ انتهرَ الروحَ النجسَ قائلاً لهُ أيُّها الروحُ الأبكمُ الأصمُّ أنا واحدة منها بفضيلة من الفضائل وبكيفيّة اقتنائها. وتنمّ منهجيّة القديس يوحنا، سواء في تصنيف مراتب الفضائل وتبويبها، أم في كيفيّة تحليل فحواها وما يحيق باقتنائها من مصاعب وعقبات، عن معرفة عميقة بالنفس البشريّة تتخطّى عصره، بل وتضاهي، في عمق تحليلها لمكنونات الإنسان، نظريّات علم النفس الحديث. لذا يبقى الكتاب رسالة حيّة لغاية اليوم تخاطب إنسان عصرنا.

وتقوم طروحات القديس يوحنا السلّمي على لاهوتنا الأرثوذكسي الذي يعلّمنا أنّ كلّ توبة هي «خروج» للإنسان من أرض الخطيئة إلى مسيرة فصحيّة، ليعبُرَ، بواسطة الصوم، ميدان التنقّي من كلّ أدران الأنانيّة، والتي هي أساسٌ للشرور في النفس البشريّة. سائر الأهواء المعابة والشهوات الخاطئة في الإنسان تنبع من «محبّة» أنانيّة قوامها الأخذ في كل شيء لا العطاء. فالرذائل تجد مكمناً في النفس التي تحبّ ذاتها، وتعشّش فيها لتصير عادةً، بل طبعاً ثانياً في الإنسان. ومهما حاول المرء أن يبدو على خلق كريم، إلاّ أنّه يقبع في دائرة الأنانيّة المغلقة، ما لم يستعطف، بالصوم والتضرّع والاعتراف الصادق، الروحَ المعزّي.

آباؤنا القديسون يؤكّدون أنّ إمكانيّة تبَدُّلِ الإنسان، عبر منهجيّة التوبة، هي في متناول كلّ مؤمن بفضل قوّة الروح القدس وحضوره، الذي يفتقد الإنسان ويعطيه شوقاً إلهيًّا والرجاء والاندفاع الضروريين من أجل المثابرة في التماس رحمة الرب ووجهه الكريم. وحدها نعمة الرب، إذا أتت، تمكّن الإنسان المقعد بضعف الخطيئة، من أن يحمل سريره ويذهب إلى بيته. وهذا كثيراً ما يحصل في الكنيسة، لكن بخفر وسكون، أي دون هتافات وإعلانات. يحصل سريًّا في قلوب إخوة لنا يتواضعون إلى الغاية أمام المسيح طبيب النفوس والأجساد وينهلون بوفرة من فيض نوره.

الإنسان اليوم هو بأمسّ الحاجة إلى منطق «سلّم السماء». كتاب كهذا يعلّمنا المواجهة الصادقة للنفس، ويشرح لنا العلّة الحقيقيّة لابتعادنا عن غاية حياة الإنسان. والمسألة الأعمق أنّ الكنيسة توجّهنا، في هذا الأحد الرابع من الصوم، لتصير حياتنا اليوميّة، في حلّنا وترحالنا، في دراستنا وعملنا، وعلاقاتنا الاجتماعيّة والعائليّة، سلّماً تصل الأرض بالسماء، وتشهد، في زمن ترك فيه الأكثرون الإيمان والرجاء، أنّ القداسة ممكنة في كلّ عصر ووقت، وأنّ في الكنيسة، بيننا اليوم، أمهات وآباء وموظفين وطلاباً...، يحبّون المسيح، ويشهدون بعطاءٍ وتضحيةٍ وشفافيّة، وأنّ عصر القداسة لم ينتهِ بعد وأنّ ملكوت السموات قريب.

مديح والدة الإله

لقد كان لوالدة الإله العذراء مريم، ومنذ بدء المسيحية، مكانها المرموق في وجدان الكنيسة. فهي أم الرب (لوقا ١: ٤٣) وهي التي تطوّبها جميع الأجيال (لوقا ١: ٤٧) وهي التي تهتم لشؤون الناس وتتدخل لدى ابنها من أجلهم (يوحنا ٢: ٣). كما اعتبرت الكنيسة أن مكانة العذراء هذه لا تعود إلى مجرّد كونها امرأة صالحة تحيا في مخافة الله وتحفظ وصاياه بل

آمرُك أن اخْرُجْ منه ولا تعُدْ تدخلُ فيهِ* فصرخ وخَبَطهُ كثيراً وخرج منه فصار كالميّتِ حتى قالَ كثيرون إنَّه قد مات* فأخذ يسوعُ بيدهِ وأنهضهُ فقام* ولمَّا دخل بيتاً سأله تلاميذُه على انفرادٍ لماذا لم نستَطِع نحن أنْ نُخرِجَهُ* فقال لهم إنَّ هذا الجنسَ لا يمكن أن يخرُجَ بشيءٍ إلاَّ بالصلاة والصوم* ولمَّا خرجوا من هناك اجتازوا في الجليل ولم يُرِد أن يدريَ أحدٌ* فإنَّهُ كان يعلّمُ تلاميذَهُ ويقول لهم إنَّ ابنَ البشر يُسلَمُ إلى أيدي الناس فيقتلونَه وبعد أن يُقتَلَ يقومُ في اليوم الثالث.

تأمل

ينبغي على مَن يجاهد للبلوغ إلى الكمال ألاّ يحصر الصلاة ضمن أوقات وساعات محدّدة إلاّ عند الضرورة والمرض. فالرب أوصى أن يُصلَّى دائماً، ليلاً ونهاراً (لو ١:١٨)، والرسول بولس سنَّ قانوناً بأن تُقدَّم الصلاة لله الكلي القدرة بشكل مستديم (١تسا ١٧:٥).

فبالصلاة ينال المؤمنون كل صلاح، ليس الرجاء بالله وحسب، ولكن الإيمان الأكيد والمحبة الصادقة

لكونها ولدت لنا إلهنا الذي هو كلمة الله، وقد اتخذ منها جسداً فصار مثلنا. لذلك أطلقت عليها الكنيسة لقب والدة الإله (المجمع المسكوني الثالث). ودرجت الكنيسة على تكريمها من خلال نظم الأشعار والتسابيح التي صار بعضها من صميم حياتنا الصلاتية حتى يومنا هذا: «يا من هي أكرم من الشاروبيم وأرفع مجداً بغير قياس من السيرافيم، التي بغير فساد ولدت كلمة الله، وهي حقاً والدة الإله إياك نعظّم»، «عليكِ وضعتُ كلَّ رجائي يا والدة الإله فاحفظيني تحت ستر وقايتكِ»، «افرحي يا والدة الإله العذراء، مريم يا ممتلئة نعمة، الرب معكِ، مباركة أنتِ في النساء ومباركٌ ثمر بطنكِ، لأنَّكِ ولدتِ مخلّص نفوسنا»...

اعتبرت الكنيسة ان والدة الإله العذراء مريم هي أمّنا جميعاً. فالرب يسوع أوكل إليها هذه المهمة وهو على الصليب: «فلما رأى يسوعُ أمَّهُ والتلميذَ الذي كان يُحبُّه واقفاً قال لأمِّه يا امرأةُ هوذا ابنُك» (يوحنا ١٩: ٢٦). وهي التي تتوسَّط لديه من أجلنا، فهي تهتم بشؤوننا وتسهر على حياتنا كما تفعل الأم مع أولادها، ونحن نأتي إليها ملقين كل همومنا ومشاكلنا عليها مستدرّين محبتها وعطفها كما يفعل الأولاد مع أمهم، طالبين منها أن تُخلصهم من جميع المصاعب والضيقات. وقد عبَّروا عن ذلك من خلال الصلوات والتضرعات التي يقدّمونها لها كلّ يوم هاتفين إليها: «أيتها الفائق قدسها والدة الإله خلّصينا». لذلك فإن ما يعتبره البعض مغالاة وما يعتبره البعض الآخر هرطقة إذ إن العذراء لا يمكنها أن تحل محل الرب يسوع، هو في غير محله.

من المؤكَّد أن العذراء لا يمكن أن تحل محل الرب يسوع. فهي ليست إلهاً ولا يمكنها أن تمنحنا الحياة الأبدية. غير انها أمنا وهي تسهر علينا وتهتم بنا، وقد اختبرت الكنيسة ذلك على مدى العصور، وما شكرنا لها ومدحنا إياها إلاّ تعبير عن محبّتنا وامتناننا لها على ما تقدِّمه لنا.

وقد تسابق الشعراء الكنسيون في نظم التسابيح والمدائح لوالدة الإله، وغالبها حُفِظ حتى يومنا هذا. ومن أهمها ما يُعرف بمديح والدة الإله، أو المديح «الذي لا يُجلَس فيه»، لأن المؤمنين يقدِّمونه للعذراء وقوفاً.

يعتقد غالبية الباحثين ان تاريخ كتابة المديح يعود إلى القرن السادس للميلاد لكنهم يختلفون حول كاتب هذا المديح، منهم من ينسبه إلى القديس رومانوس المرنم (النصف الأول من القرن السادس)، كونه يتبع القنداق من حيث النوع الأدبي، والذي اشتهر به القديس رومانوس، ومنهم من ينسبه إلى آخرين كالبطريرك سرجيوس (القرن السابع)، والبطريرك جرمانوس الأول (القرن الثامن). إلاّ أن مديح والدة الإله، وبغض النظر عن كاتبه وتاريخ كتابته، اكتسب مكانة مهمّة في طقوس الكنيسة الأرثوذكسية وفي قلوب المؤمنين الذين ينتظرون بلهفة إقامة هذه الخدمة خلال فترة الصوم الكبير ليعبّروا بواسطة كلمات هذا المديح عن شكرهم لوالدة الإله، كما أن من عادة الرهبان أن يتلوه كلّ يوم على مدار السنة تقريباً.

لا بد من الإشارة هنا إلى أن ما يُطلق عليه اسم المديح هو الأبيات الأربعة والعشرون التي يتألف

والتسامح والاخوّة والامساك والصبر والمعرفة الداخلية والنجاة من التجارب والاعتراف القلبي والدموع المدرارة والصبر في الشدائد والصفح الصادق للقريب ومعرفة الناموس الروحي واكتشاف عدالة الله وحلول الروح القدس، وكل ما وعد به الله أن يمنحه للناس المؤمنين هنا وفي الدهر الآتي.

وباختصار يستحيل على النفس أن تظهر بحسب الصورة إلاّ بمساهمة النعمة الإلهية أولاً، وبالإيمان ثانياً مصحوباً بالتواضع الكثير والصلاة المتواصلة في الذهن البعيدة عن كل تشتت.

عندما يرى الشيطان أنّ الذهن قد صلّى من أعماق القلب، يحاربه بأفكار خبيثة كثيرة وسيئة لأن الفضائل الصغيرة لا تحتاج لتخريبها إلى هجمات كبيرة.

فللحصول على مساهمة النعمة الإلهية وعلى الرضى الإلهي، لا توجد وسيلة أقوى وأنجع من الصلاة. حسن أن نفيد بالكلام من يطلبون المنفعة. لكن الأفضل من ذلك أن نساعدهم بالفضيلة والصلاة.

القديس مرقس الناسك

منها، وبدؤها: «إن الملاك المتقدّم أُرسل من السماء ليقول لوالدة الإله إفرحي...».

أما القسم الثاني الذي يرافق المديح فيُسمَّى القانون وبدؤه: «افتح فمي فيمتلئ روحاً...»، وهو نوع أدبي مختلف عن القنداق وقد كتب هذا القانون يوسف ناظم التسابيح (القرن التاسع) الذي نظم معظم القوانين الموجودة في الكتب الطقسيَّة، وقد استوحى في تأليفه معاني القنداق.

خدمة المديح منظومة كما ذكرنا سابقاً على نوع القنداق، فهي قنداق في تجسُّد الكلمة وبشارة العذراء. يتألف هذا القنداق من مقدمة أساسية هي «إن غير المتجسد لما أخذ في معرفته ما أُمر به سرياً» (وقد أُضيفت في فترة لاحقة مقدّمة ثانية هي «إني أنا عبدكِ أو مدينتك يا والدة الإله»)، ومن أربعة وعشرين بيتاً تشكّل الحروف الأولى منها الأبجدية اليونانية بحروفها الأربع والعشرين. ويتميَّز قنداق المديح بلازمتين: الأولى «افرحي يا عروساً لا عروس لها» تترافق مع الأبيات المفردة العدد، والثانية «هلليلويا» تترافق مع الأبيات المزدوجة العدد.

لقد صيغت الجمل الشعرية في المديح، التي تأتي بعد فاتحات الأبيات المفردة، والتي تبدأ بعبارة «افرحي»، منظومة على نمط الموازاة الذي يكثُر استعماله في المزامير الكتابية، وهو أن تردّد معنى واحداً في جملتين مختلفتي التعابير. كما أننا نجد اعتماداً على العدد ١٢ في التأليف، وهو يرمز هنا إلى والدة الإله، المرأة المتسربلة بالشمس، والقمر تحت رجليها، وعلى رأسها إكليل من إثني عشر كوكباً، كما أشير إليها في كتاب الرؤيا (١:١٢).

من الملاحظ ان الأبيات الطويلة تتوجه نحو العذراء، وهي تؤلّف المديح لها، أما الأبيات القصيرة ففي غالبيّتها تتوجه نحو المسيح، باستثناء الأبيات ٢، ٤ و٢٤ التي تتوجه نحو العذراء.

يقسم قنداق المديح إلى قسمين: تاريخي ولاهوتي. يشمل القسم التاريخي الأبيات الإثني عشر الأولى، وفيه سردٌ لأحداث البشارة والميلاد ودخول المسيح إلى الهيكل، كما وردت في الإصحاحين الأوَّلين من إنجيلي متى ولوقا. أما القسم اللاهوتي فيشمل الأبيات الإثني عشر الأخيرة، وفيه إعلان لعقيدة التجسد وتأمل في دور والدة الإله، وفيه ينشغل الشاعر بموضوع التجسُّد الإلهي وخلاص البشريَّة جمعاء.

في البيت الأخير، وهو خاتمة نشيد المديح، تضرعات إلى البتول مريم الكليَّة القداسة والطهارة لكي تتقبل صلواتنا وتنقذنا من أصناف الشرور والشدائد. فالعذراء بحسب تعليم الكنيسة هي الشفيعة الحارة لنا عند المخلِّص لذلك نتضرَّع إليها كي تُنجّينا من صنوف الشدائد لأن طلبة الأم تقتدر كثيراً في فعلها: «يا ذاتَ كلِّ تسبيح. أيتها الأمُّ التي وَلدت الكلمةَ، الأقدَس من كل القديسين. تقبَّلي هذا القربان (الصلاة) وأَنقِذي الكلَّ من جميع المصائب، وخلِّصي من العقوبة الأخيرة المقبلة الصارخين نحوك: هلليلويا».

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb